

هذا الكتاب يعد مرحلة مع طلاب المدارس العليا حيث كنت دائماً أشعر بالحاجة إلى الحديث إلى طلاب هذه المدارس في المدن والأقاليم الفرنسية ، وبعد حصولي على جائزة نوبل في العلوم عام ١٩٩١ م ، وجدت نفسى مدعواً للحديث في المدارس العليا . وكان يتم ذلك بالاتصال المباشر مع الطلاب أنفسهم وأحياناً تحت مظلة التجمعات والأندية الطلابية . وبالتالي جهزت نفسى وأعددت أدوات العرض من الصور والكتب والمذكرات واخترت طريق الحديث عن حياة باحثينا : ما هي نوعية حياتهم الجامعية والعملية ؟ كيف نشارك الباحثين نجاحهم وفشلهم واختلافاتهم وأخطائهم ؟ كيف نبين للطلاب أن العلم متحرك وأن مساره ليس مستقيماً دائماً ، بل أنه مليء بالافخاخ التي تؤدي أحياناً كثيرة إلى تعرج المسار ، وأن العلم له طرق غير متوقعة ومختصرة ؟

والباحث عند نقل رسالته العلمية لا يعتبر نبياً ولا هو يشابه العالم « البرت اينشتين » ولكنه يكون كشاف غالباً ما يتردد ويتعب .

وعند أول مدرسة قمت بزيارتها اعتراني شعور بالسعادة والفرحة ، فالقاعة مجهزة بالنظم الصوتية والمؤثرات السمعية الحديثة وبالوسائل التعليمية المختلفة ، بالإضافة إلى ذلك كنت في مواجهة ألفين من الشباب الذين حضروا من كل الضواحي البعيدة . والحديث في هذا الجو المفعم بالهدوء يفتح أبواب العالم . والحديث الرسمي يتبعه عادة أسئلة وأجوبة دورية في حوار ومناقشة حقيقية . ومن الصعب على المرء أن يواجه هذا الجمع خاصة في حضور المسئولين . ولكن شيئاً فشيئاً مع ترويض النفس سرعان ما يبدأ الحوار بالحماس وتدخل في المعركة ونمضي ساعة أو ساعتين من الأسئلة المتواصلة .

وأول هذه الأسئلة تكون ذات طبيعة فنية عن خصائص المطاط والملصقات وغير ذلك . ثم تأتي نظرة أوسع شمولية وتتضمن الأسئلة الآتية :

* ما هو المسار الذي يسلكه المرء لاعتناق مهنة البحث العلمي ؟

* هل يتميز العالم الباحث بمواصفات فريدة ؟

* هل لابد أن يتفوق المرء في علم الرياضيات ؟

* ما هو حال التعليم في مدارسنا في العصر الحديث ؟

وبالتدرج تبدأ الأسئلة في أخذ أبعاداً أخرى أكثر عمومية منها :

* لماذا نتعلم العلوم ؟ وما هي الأفكار الممكنة ؟

* ما هو عالمنا ؟ ومن أين أتينا ؟ وإلى أين نذهب ؟

* هل هناك حياة أخرى في الكون ؟

إنه تخدى مخيف أن تواجه هذه التساؤلات وأن تجد إجابة مناسبة لها ، إنها لمنفعة أن تعالج الأسئلة أمام هذا الجمع بحثا عن الحقيقة .

وأثناء حديثي ، كنت اشرح بصدق ضعف النظام التعليمي الفرنسي وتفاعلاته . وناشدت من أجل البحث عن علاقة جديدة بين الطلاب والمدرسين . هناك كثير من الذكريات المتراكمة عن زيارتي للمدارس العليا أو المدارس الفنية الصغيرة . وأحيانا عند زيارة المدارس الصغيرة لا يوجد بها اتفاقيات تكفي لإلقاء أى بيان عملي ، ولهذا السبب فقد تحدثت أمام جمع من الطلاب فى ورشة الماكينات أمام الفنانين الذين اصطفوا بزيهم الأزرق .

وكنت أواصل محاضراتي فى مسارح المدارس مما يجعل الحديث حماسيا . لقد تراكمت ذكريات الحصاد الفكرى ، وفى النهاية ، وجب التوقف فقد كنت مثقلا ومتعبا بسبب آلام القلب اضطررتنى إلى تأجيل الدعوات المتتالية لمدة عام كامل . كنت مضطرا أن استجيب لأكثر من ١٥٠ دعوة إلى المدارس العليا المتميزة بالنشاط والحماس . وكان من المستحيل أن أغلق هذه الصفحة السعيدة فى حياتى دون محاولة الأمساك بهذه الذكريات وتسجيلها .

وجاءت فكرة تسجيل يومياتى فى كتاب ، وكانت كثير من المواد متاحة على شكل تسجيلات وشرائط وصور فوتوغرافية وأفلام فيديو ، تركزت على المتحدث وأهملت القاعدة المستحقة من الحضور .

من حسن حظى أن صاحبتى صديقتى چاك بادوز الذى يعمل فى المعهد العالى للفيزياء والكيمياء بباريس ، حيث كان شغوبا بهذه الرحلات ومناقشة نتائجها . وقد بذل جهودا مضنية لجمع وترتيب المواد بعناية . وكنت اتفق معه فى وجهات النظر وعملنا سويا بيسر وبدون متاعب .

هذا الكتاب هو ذكريات فقط . فالذاكرة ذاتها ما هى إلا جسم رخو ، لا يمكن الحفاظ على الأسئلة الفردية التى تشكل أكثر الأجزاء أهمية بدون تسجيلها . لا بد من إعادة صياغتها لتوائم موضوعا خاصا أعطى لمستمعين مختلفين .

بلا شك ، فى هذه العملية فقدنا كثيرا من طبيعة الحوار التلقائى ولكننا نرعب أن نمسك « بشرة » حب الفضول والحماس الذى ملأ نفوسنا خلال زيارتنا للمدارس .

المؤلف

بيير ج. دي جين